

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

م
أبحاث السدوة الدولية لتاريخ القاهرة

مارس - أبريل ١٩٦٩

دراسة في الزجاج المصري

عبد الرؤوف على يوسف

أمين أول متحف الفن الإسلامي - القاهرة - وزارة الثقافة



مطبعة دار الكتب

١٩٧١

دراسة في الزجاج المصري

عبدالرؤوف على يوسف

أمين أول متحف الفن الإسلامي - القاهرة - وزارة الثقافة

دراسة في الزجاج المصري

عبد الرؤوف على يوسف

يضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحفتين متشابهتين من الزجاج، عبارة عن دورقين صغيرين بدهما كثرى الشكل ، ولكل منهما فوهة بيضاوية الشكل ، ينتهى طرفها بجزء صغير مسحوب يكون المصب، ويقابله مقبض يتألف من شريط زجاجى ينثنى من أعلاه ، ليكون نتوءا يرتكز عليه أبهام اليد عند الاستعمال .

ويحمل الدورق الأول رقم سجل ١٣١٠٤ ، وقد اقتناه المتحف عن طريق الشراء من التاجر موريس نجان بالقاهرة سنة ١٩٣٥ (شكل ١) .

أما الدورق الثانى فقد ضم لمجموعات المتحف عن طريق الإهداء سنة ١٩٥٠ ، وسجل برقم ١٦٣٧٣ (شكل ٢) .

وقد ذكر بسجل المتحف أن الدورق الأول يحمل نصا بالخط الكوفى يقرأ « عمل أحمد بن هنيدا » ، أما الدورق الثانى فقد اقتصر على ذكر أنه مزين بكتابة كوفية . ولم ينشر أى من هذين الدورقين من قبل .

ويمتاز الدورق الأول بأنه أكثر جمالا وتناسبا من الدورق الثانى، فنجد له رقبة لطيفة رشيقة، ومقبضا رقيقا يزيدان من جماله، أما الدورق الثانى فرقبته قصيرة، تعطى للبدن شكلا مخروطيا، ومقبضه أكثر سمكا، ويمتاز هذا الدورق الأخير بعروة للتعليق فى أعلى البدن. ويحمل كل من الدورقين سطرين من الكتابة الكوفية البارزة:

ومن دراستنا لهاتين التختين أمكننا أن نتبين فيهما مثلين جديدين من مجموعة متشابهة من الدوارق عددها أربعة، وكلها ذات بدن كثرى ومنفوخة فى القالب — هذه المجموعة التى قام بنشرها الأستاذ رايس D. S. Rice فى صحيفة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن سنة ١٩٥٨ م (ص ٨ — ١٦) .
"Journal of the Royal Asiatic Society"

وقد نشر الأستاذ رايس فى بحثه هذا دورقا فى متحف الفن بمدينة توليدو بولاية أوهايو الأمريكية، وذكر أنه مطابق فى كتاباته وزخارفه للدورق آخر كان محفوظا فى مجموعة أسرة « أ . تشرشل » بلندن (A. Churchill)

وقرر الأستاذ رايس أن هذين الدورقين لابد وأن يكونا قد نفخا فى قالب واحد، وكذلك ذكر أن الدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك^(١) مطابق لدورق رابع محفوظ فى مجموعة السيد « أرنست كوفلر » (Ernst Kofler) بمدينة لوسيرن بسويسرا، وأنهما نفخا فى قالب مشابه آخر أقل حجما من القالب السابق.

وقد قرأ الأستاذ رايس السطر الأول من الكتابة «مما عمل للأمير بيغدا [د]»، كما قرأ السطر الثانى «عمل طيب (طلب) بن أحمد بن مسى» .

(١) م . س . ديمانند : الفنون الإسلامية (ترجمة أحمد عيسى) ص ٢٣١ ، القاهرة ١٩٥٣

أما عن السطر الأول فلا خلاف على الكلمتين « مما عمل » نجدهما واضحتين على تحفّ متحف الفن الإسلامى ، يليهما كلمة « الأمير » نجدها مقسومة نصفين ، يفصل بينهما الخط البارز الفاصل بين نصفي القالب على أحد الدورق ، بينما نجدها كاملة على الدورق الآخر رقم سجل ١٣١٠٤ ، وتكون الكلمة الأخيرة من أربعة حروف يمكن قراءتها « بيعة » ، وإذا كان المتبع وما نتوقعه دائماً بعد عبارة « مما عمل للأمير » أن نجد اسمه ، فإن هذه الكلمة الأخيرة تصبح اسماً واضحاً إذا أضفنا إلى أولها حرف « راء » ، فتصير « ربيعة » (أشكال رقم ١ ، ٢ ، ٣) ، ولعل حرف الراء هذا قد سقط سهواً ممن قام بحفر القالب ، وربما يكون الصانع قد تعمد عدم تكراره بعد حرف الراء الأخيرة في كلمة « الأمير » ، ونقرأ الحرف الأخير من هذه الكلمة الرباعية حرف « هاء » متتهية ، بدلا من قراءتها حرف دال ، « د » ، كما فعل الأستاذ رايس فجعلها « بيغدا » وأفترض وجود حرف « د » ثانية بعد حرف الألف ، وأن هذه الدال الأخيرة ربما تكون قد فقدت بين نصفي القالب ، وكذا رجح قراءة هذه الكلمة « بيغداد » : ويبدو أن الأستاذ رايس قد اعتمد على الدورق الذى كان فى حوزة « أ . تشرشل » بلندن ، والذى اشتراه بعد ذلك السيد ارنست كوفلر بلوسيرن وضمه إلى زميله المشابه فى مجموعته ، وقد تفضل السيد كوفلر بتزويدى بصور تفصيلية ، وصورة لقالب جصى للنص ، وتبينت وجود خط رئيسى بارز ، بعد هذه الكلمة الرباعية فى السطر الأول ، ولعل هذا الخط هو الذى دفع الأستاذ رايس إلى وضع حرف « ألف » بعد الدال الأولى :

ولكن هذا الخط الرأسي أو ما يشبه حرف الألف لا نجده في باقي الدوارق من هذه المجموعة^(١)، ولعله وضع هنا للملأ الفراغ ، وذلك لقلة عدد كلمات النص العلوي عن النص السفلي :

وهنا يبرز السؤال من يكون الأمير ربيعة هذا ؟ وبمقارنة أسلوب الكتابة وأشكال الحروف على هذه الدوارق بمثلتها على العملات وصنج السكة الزجاجية من العصر الطولوني نجد على بعض هذا النوع الأخير عبارة « مما أمر الأمير أحمد بن طولون » وعلى بعضها الآخر اسمه فقط مسبقا بلفظ الأمير بعبارة « الأمير أحمد » وعلى صنجة أخرى نجد اسم ابنه « الأمير خمارويه »^(٢) ، فإذا تأملنا أشكال الحروف على مجموعة دوارقنا هذه نجدها مطابقة لأسلوب الخط وأشكال الحروف من هذا العصر أيضا .

ولذا نعتقد أن هذه المجموعة من دوارق الشراب تحمل اسم أحد أمراء الدولة الطولونية في مصر هو الأمير ربيعة بن أحمد بن طولون الذي كان يحيا حياة الترف والتنعيم حتى كانت ثورته على ابن أخيه هارون بن خمارويه ، ومقتله سنة ٨٩٦ م .

أما السطر الثاني على دورقي متحف الفن الإسلامي السابق الذكر فيمكن قراءته « عمل نصير بن أحمد بن هيثم (?) » (شكل ٣) ، ولعل الأحرف التي تنتهي بها الكلمة الأخيرة تحتاج لبعض التحقيق ، أما باقي العبارة فتبدو واضحة ، وهي تدل على اسم الزجاج ، أو صانع القالب :

(١) زودفي كل من الأستاذ الدكتور إيرنست جروبه والأنسة مارلين جنكينز مشكورين بمجموعة من الصور التفصيلية للدورق المحفوظ بمتحف المتروبوليتان ، رقم سجل (X. 121. 191) .

(٢) من أمثلة هذه الصنجات الصنجان برقي سجل ١٨٥٣٥ ، ١٨٥٤٧ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، الأول باسم أحمد بن طولون وعلى الثانية عبارة « الأمير خمارويه » .

ولقد قرأ الأستاذ رايس الاسم الأول « طيب أو طلب » ، بالرغم من أنه لاحظ وجود حرف شبيه بحرف اللام قبل هذه الكلمة على الدورق الأول بمجموعة أرنست كوفلر .

ويضم متحف الفن الإسلامى بعض قطع من الزجاج عليها اسم صانعها « عباس بن نصير »^(١) يرجح أنها من العصر الفاطمى ، وهنا يمكن أن نتساءل عن صلة قرابة بين هذا الزجاج وصانع هذه الدوارق الجميلة « نصير بن أحمد ابن هيثم » :

كذلك يضم متحف الفن الإسلامى كسرتين أخرتين من الزجاج (رقم سجل ١٤٨٤١ ، ١٩٧٣٧) ، وقطعة ثالثة فى إحدى المجموعات الخاصة بالقاهرة (شكل ٥) عليها كتابة بارزة مختومة نصها « عمل بمصر »^(٢) بنفس أسلوب الخط والكتابة على مجموعة الدوارق هذه ، فضلا عن تشابه نوع الزجاج ، مما يؤيد نسبة هذه المجموعة إلى مصر وليس إلى الشام أو العراق ، كما كانت تنسب حتى الآن^(٣) :

(١) لام : الزجاج فى العصور الوسطى ص ١١٧ لوحة رقم ٥ ، زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٣ . ويضم متحف الفن الإسلامى ثلاث قطع عليها اسم هذا الصانع ارقام سجلها ٨١٦٧ ، ٢ ، ١٢٦٣٨ ، ١٥٥٧٩ .

(٢) كذلك تحمل بعض صنج السكة الزجاجية منذ فجر الإسلام اسم « مصر » بخط كوفى بسيط ككان لصناعتها . انظر عبد الرحمن فهمى : الشارات المسيحية على السكة الإسلامية لوحة ٨ شكل ٢٣ ، ٢٤ ، ص ٣٥٣ : المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية فى فاس . القاهرة : ١٩٦١ م .

(٣) م . م . س . وبماند : المرجع السابق ص ٢٣١ .

ويعرض متحف الفن الإسلامى هذين الدورقين فى الخزانة رقم (١) بقاعته الزجاج رقم (٢١) :

ويضم متحف الفن الإسلامى قطعة أخرى من الزجاج ذى البريق المعدنى ، فريدة فى بابها (رقم سجل ١٢٧٣٩-٦) ^(١) تعتبر أقدم قطعة مؤرخة وهى تمثل قاع إناء صغير ، مزخرف بأسلوب البريق المعدنى (قطر ٥,٥ سم - ارتفاع ١,٧ سم) تزينها هيئة وريدة حولها نص دائرى من الكتابة الكوفية بحروف بسيطة قرأته « مما عمل فى طراز القبلة بمصر سنة ١٦٣ » (شكل ٤) ، ونلاحظ أن أرقام هذا التاريخ الهجرى مكتوبة بالأرقام القبطية ، ويقابل هذا التاريخ سنة ٧٧٩ م. ويحيط بالنص بقية زخارف نباتية باللونين الأصفر والبنفسجى الداكن ، وقد ساعد على تحقيق التاريخ خاصة الرجوع إلى وثائق البردى العربية بدار الكتب ، والى نشرها أستاذنا أدولف جروهمان ^(٢) ، ونلاحظ أنه قد استمر كتابة التواريخ الهجرية بالحروف القبطية فى بعض الوثائق فى مصر حتى العصر الفاطمى ^(٣) .

ويقع هذا التاريخ الذى تسجله هذه الوثيقة الزجاجية (سنة ١٦٣ هـ) ، فى عهد والى مصر يحيى بن داود بن ممدود الحرشى ، وكنيته أبو صالح ^(٤) ، وقد تولى إمارة مصر من قبل الخليفة العباسى المهدي فى الفترة من ذى الحجة سنة ١٦٢ هـ إلى ١٠ المحرم سنة ١٦٤ هـ .

(١) نشرت هذه التحفة لأول مرة فى مقالنا عن « الزجاج » ضمن موضوعات الاهرام الخاصة عن القاهرة - صحيفة الاهرام عدد ٢٣ يناير ١٩٦٩ م .

(٢) أوراق البردى العربية ج ٢ ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، رقم ١٩٦ لوحة ٢٠ سطر ١١ ، ج ٤ وثيقة ٢٢٦ لوحة ٣ سطر (٥) ، لتحقيق رقم (ستين) وانظر كذلك عبد الرحمن فهمى :

الشارات المسيحية والرموز القبطية (المرجع السابق) لوحة رقم (٩)

نقلا عن : (A. Mallon : Grammaire Copte, 1926.)

(٣) جروهمان : المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ليصال مؤرخ (٥٠٤ هـ)

(٤) ذكر زامبور فى « معجم الاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ج ١ ص ٣٩

هامش (٥) أن اسم هذا الوالى يحتمل أن يكون يحيى بن سعيد » كما ذكر الطبرى ج ٣ ص ٤٩٢ .

ويذكر المقرئى (الخطط ج ١ ص ٣٠٧) عن هذا الوالى أنه كان من أشد الناس وأعظمهم هية وأكثرهم عقوبة ، فنع من غلق الدروب بالليل ومن غلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب ، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها ، وقال من ضاع له شئ فعلى أداؤه ، فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول يا أبا صالح احرسها ، فكانت الحال على هذا مدة ولايته .

وترجع أهمية هذه القطعة ليس فقط إلى تاريخها المبكر ، ولكن لذكر مكان الصناعة أيضا في النص « في طراز القيلة بمصر » ولعل أرجح التفسيرات لهذه العبارة هو « مصنع القيلة » بالفسطاط ، ولما كان النص غير منقوط فيمكن قراءة الكلمة على عدة وجوه : منها « القيلة » أو « القيلة » جمع فيل . وتحدثنا المراجع عن « دار الفيل » التي كانت من أهم دور الفسطاط وكذلك^(١) نعرف « جامع القيلة » الذى بناه الأفضل بن بدر الجمالى فيما بعد سنة ٤٧٨ هـ بسطح الحرف المطل على بركة الحبش ، وسمى بذلك لوجود تسع قباب فوقه ، فى جانبه القبلى كانت تبدو بشكل القيلة لمن يرى المسجد من بعيد ، ذكر هذا المقرئى فى حديثه عن الجوامع^(٢) ، ثم نجده يشير إليه بعبارة أخرى فى الحديث عن إنشاء المرصد (الرصد) فيقول « ... فأجمعوا على سطح الحرف بالمسجد المعروف بالقيلة الكبير » .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٧٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ . كانت هذه الدار لأبى عثمان مولى الأمير مسلمة بن غلدة الأنصارى ، وذكر محمد رمزى : القاموس الجغرافى . ، البلاد المتدرة ص ١٥٢ ، ١٥٣ أنها كانت على بركة قارون واشتراها كافر الاخشيدى من حبس بنى مسكين (جنان بنى مسكين) ، وموقعها على سكة المذبح من الجهة الشمالية منها جنوبى البغالة بالسيدة زينب . كما ذكر أيضا أن هذه الدار هى غير « دار القيلة » التى أنشأها خاروية على حافة بركة الفيل حيث شارع نور الظلام الآن .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٨٩ .

فلعل لفظ « القبلة » هذا كان يطلق على المكان أيضا في هذا الموضوع
(منطقة الحرف) وليس فقط تشبيها للقباب على جامع الأفضل بشكل « القبلة »
ولعل لفظة « القبلة » اختصار أو تحريف لاسم بلدة « فيلس » القديمة
بمصر الوسطى التي جاء ذكرها في وصف رحلة العائلة المقدسة ببعض الأماكن
بصعيد مصر . يقول المقرئى « ثم أنهم ساروا من الأشمونين ، وأقاموا
بقرية تسمى « فيلس » مدة أيام ، ثم مضوا إلى مدينة تسمى « قس وقام » ،
وهي التي يقال لها اليوم « القوصية » (خطط ج ١ ص ٢٣١) ، كذلك جاء
في (القاموس الجغرافى) ذكر « كفر القبلة » كأحد كفور « البربا الكبرى »
بالأشمونين .^(١) كذلك ذكرت مدينة « فيلوتريس » وهي من المدن المدرسة التي
أنشئت بالفيوم في عهد البطالسة^(٢) ، وإن كان هذا الافتراض الأخير يستتبع
أن تعنى كلمة « مصر » التي تلى كلمة « القبلة » مصر كلها وليست مدينة
الفسطاط ، والمعروف أن منطقة الأشمونين هذه كانت ذات شهرة قديمة
أيضا في صناعة الزجاج قبل الإسلام .

ومن القراءات ذات المعنى لهذه الكلمة أيضا « القبلة » وتذكر في المراجع
التاريخية لتدل على الكعبة الشريفة أو الاتجاه إليها (الاتجاه الجنوبي الشرقى)
جاء في ذكر مدائن أرض مصر بالخطط « ومن كور القبلة كرى الحجاز
وهي كورة الطور وفاران وكورة راية والقلزم وكوره أيلة وحيزها ومدين
والعونيد والخوراء وحيزها ثم كورة بدا وشغب »^(٣)

(١) محمد رمزى : القاموس الجغرافى . البلاد الحالية ج ٣ ص ١٨٤ سنة ١٩٦٠ .
وينطق لفظ (القبلة) بفتحين على الفاء والياء ، وتقع هذه البلدة حاليا مركز أبى قرقاص بمديرية المنيا .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٤ .

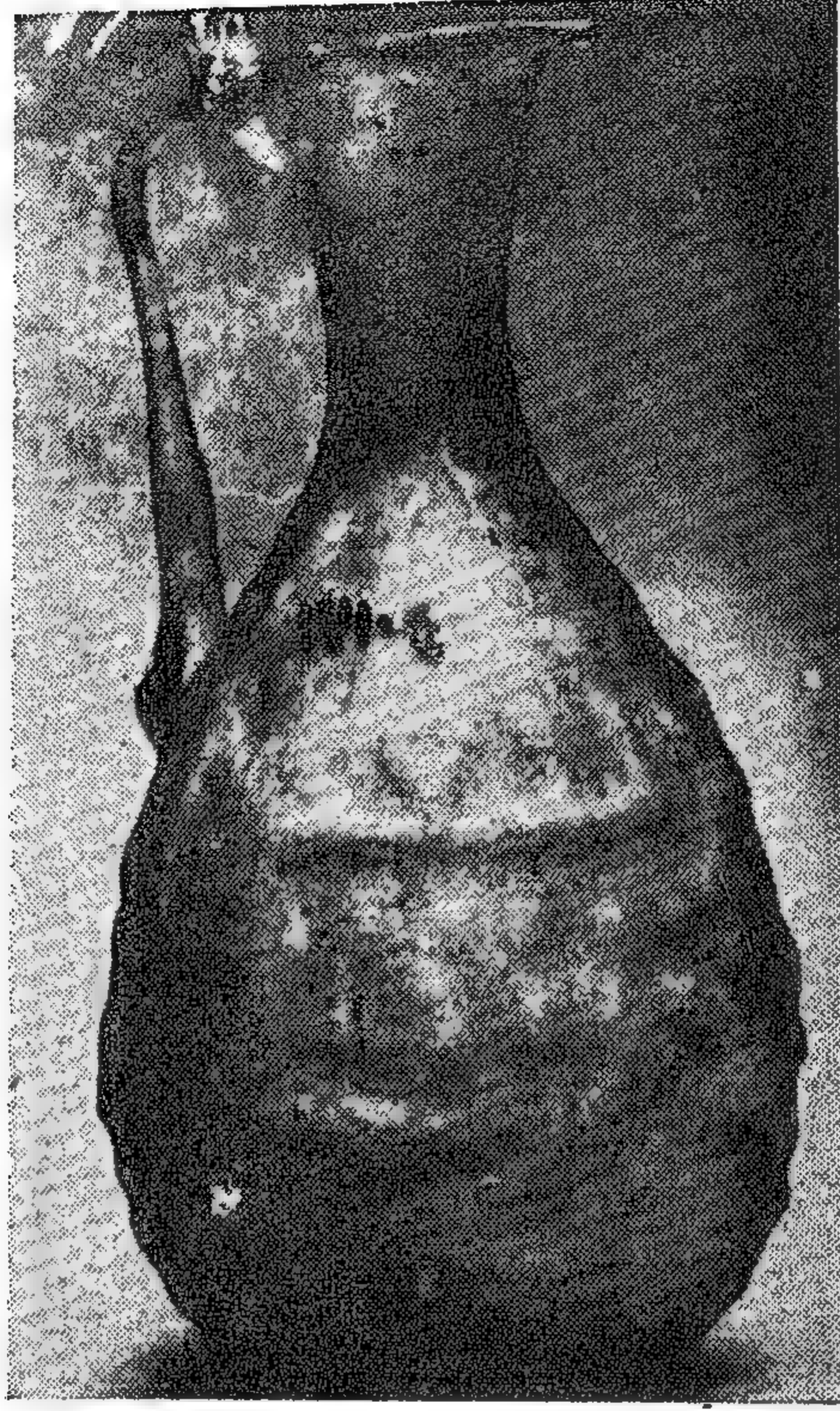
(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٧٣ .

كما تستعمل كلمة «القبلة» أيضا بمعنى محراب الجامع ولكننا نستبعد وجود مصنع للزجاج كان يحمل هذا الاسم «طراز القبلة» وينسب إلى قبلة الصلاة. وارجح التفسيرات هو أن نعتبر كلمة القبلة علما على أسم المصنع أو المدينة كما ألفنا غالبا أن نجد تفسيراً لنوع مصانع النسيج بعبارات نصها «مما عمل في طراز الخاصة ، أو العامة بمدينة كذا» .

وتبقى الإشارة إلى أهمية هذه القطعة الزجاجية بمتحف الفن الاسلامي في اثبات استخدام أسلوب البريق المعدني المتعدد الالوان على الزجاج في هذا الوقت المبكر من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ويرجع هذا الدليل كفة مصر في السؤال الذي كان يتردد منذ مدة طويلة عن أصل أسلوب الزخرفة بالطلاء المعدني على الزجاج والخزف ، هل موطن هذا الاسلوب مصر أو العراق أو ايران ؟ ؟

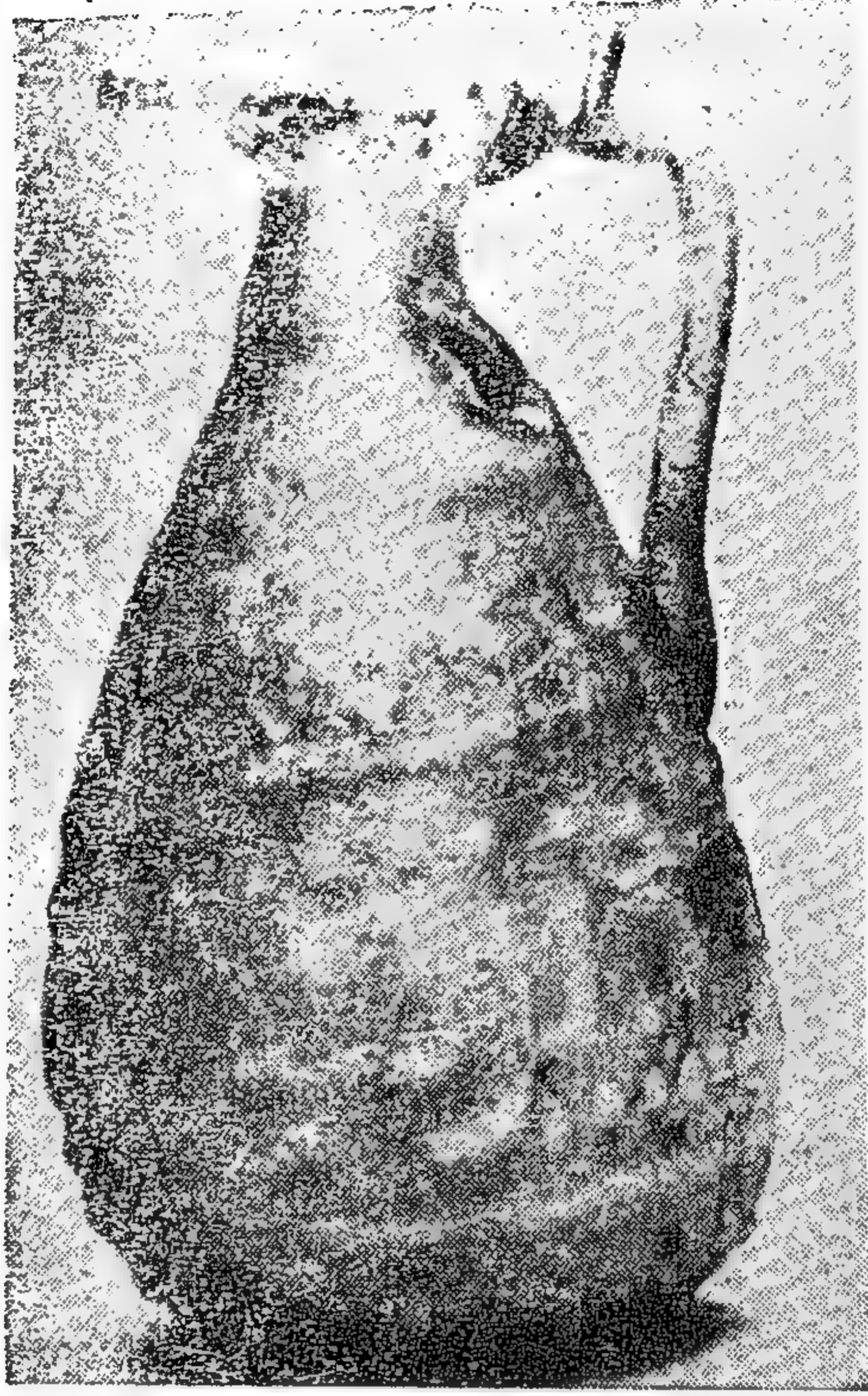
وبناء على هذا الدليل نستطيع أن ننسب إلى مصر تحفا جميلة من الزجاج ذي البريق المعدني عثر عليها بالقسطاط آخرها الكأس الزجاجية الجميلة ذات البريق المعدني التي عثرت عليها بعثة مركز البحوث الامريكي بالقاهرة في حفائرها بمنطقة القسطاط عام ١٩٦٥ والتي تحمل أسم الامير عبد الصمد بن علي وإلى مصر سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ - ٧٧٣ م) والتي تخلو من ذكر مكان الصناعة ^(١) .

(١) جورج اسكانلون : مجلة الآثار «Archaeology» ج ٢١ ص ١٩٥ وشكل ملون مقابل ، يوثق سنة ١٩٦٨ م. الكأس محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة برقم سجل ٥٢٣٢٨٤



شكل رقم (١)

دورق رقم سجل ١٣١٠٤ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة



شكل رقم (٢)
دورق رقم سجل ١٦٣٧٣ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

مما عمل لأهل مصر مما عمل لأهل بلاد مصر

شكل رقم (٣)

نص الكتابة على ورق متحف الفن الإسلامى بالقاهرة



شكل رقم (٤)

قاع إثناء زجاج مزخرف بالبريق المعدنى عليه عبارة نصها « مما عمل فى طراز القيلة بمصر سنة ١٦٣ »
وأرقام التاريخ الهجرى مكتوبة بأرقام قبطية

